النَّقْدُ الجزائريّ بِوَصْفِهِ خطابًا نَسَقِيّاً

في جَدَلِيَّةِ النَّقْدِ والمَرجع

Algerian Criticism as a Systematic Discourse

In the dialectic of criticism and reference

علال سنقوقة *

تاريخ الارسال	تاريخ القبول	تاريخ النشر

الملخص:

شكّلت مرحلةُ ما بعد النقدية، متمثلةً في نقد ما بعد البنيوية وما بعد الحداثة وما بعد الكولونيالية، تياراتٍ مهمةً ومُؤسِّسةً لنقدٍ يروم تجاوز المفهوم البلاغي للأدب بحيث جعلت ما وراء الأدبية هدفها المرجعي وظهرت بذور هذا الاتّجاه من خلال كتابات مبكّرةٍ استباقية لرولان بارت وميشال فوكو، فالأول حوّل النظر من "العمل" إلى "النص" وأشار إلى الشفرات النسقية. أما الثاني فقد أسّس لمفهوم الخطاب، وتركّز الوعي النقدي هنا على محاولة استجلاء فعل الخطاب وتحولاته النسقية كمحاولة لتجاوزِ الحقيقة التاريخية أو الجمالية للأدب ولذلك نسعى من خلال هذه الدراسة استجلاء الأسس التي انبنى عليه النقد الجزائري وبيان تموضعها كمقولات صاحبت مسيرته التي لا تزال لم تطأ مقولات الحداثة ومابعدها بشكل كامل وملائم.

الكلمات المفتاحية: النقد الجزائري، الحداثة، مابعد الحداثة، النسق

Abstract:

The post-critical stage, represented by post-structural, post-modern, and post-colonial criticism, constituted important and foundational currents for a criticism that aims to transcend the rhetorical concept of literature so that it made meta-literary its reference goal. Therefore, we seek through this study to elucidate the foundations upon which Algerian criticism was built and to clarify its positioning. As sayings that accompanied his career, which still has not fully and appropriately explored the categories of modernity and its aftermath.

***Keywords**: Algerian criticism, modernity, postmodernism, pattern*

****

* جامعة الجزائر2

مقدمة:

شكّلت مرحلةُ ما بعد النقدية، متمثلةً في نقد ما بعد البنيوية وما بعد الحداثة وما بعد الكولونيالية ، تياراتٍ مهمةً ومُؤسِّسةً لنقدٍ يروم تجاوز المفهوم البلاغي للأدب بحيث جعلت ما وراء الأدبية هدفها المرجعي وظهرت بذور هذا الاتّجاه من خلال كتابات مبكّرةٍ استباقية لرولان بارت وميشال فوكو، فالأول حوّل النظر من "العمل" إلى "النص" وأشار إلى الشفرات النسقية .أما الثاني فقد أسّس لمفهوم الخطاب، وتركّز الوعي النقدي هنا على محاولة استجلاء فعل الخطاب وتحولاته النسقية كمحاولة لتجاوزِ الحقيقة التاريخية أو الجمالية للأدب، وامتدّ النقد الجديد إلى نقد النظرية الأدبية نفسها من خلال إعادة النظر في نظرية الأنواع بوصفها جزءًا مما يسميه "النسقيون" بالمفهوم الرسمي للأدب **(1)** .

تأسيسًا على مفهوم النّسق باعتباره ذا طبيعة خارج لسانية **(2)**ونقداً للجمالية ، يلاحظ عبد الله الغذامي الإفراط في الاهتمام بالأدب الرسمي أو المفهوم الرسمي للأدبية وإغفال ما هو جماهيري في التصنيف في حين أنّ الفعل الجماهيري الثقافي يأسره غير الرسمي ويتجلّى ذلك من خلال الاهتمام بالمهمّش : الأغنية الشبابية،النكتة، الإشاعات، اللغة الرياضية والإعلامية ،الدراما النلفزيونية...وهي الأشكال الثقافية التي تفرض ذاتها على وعي الجماهير أكثر من قصيدة لأدونيس أو غيره من الشعراء المشهورين الذين سخّر النقد الجمالي أدواته من أجلهم وهي إحدى الحجج القوية التي يقدمها النقد الثقافي لتبرير انحسار دور النقد الأدبي. **(3)**

عند قراءتنا للمسيرة النقدية الجزائرية، حتما نلاحظ تلك الكثافة النصّية التي تتحوّل إلى تراكماتٍ من الخطابات الأخلاقيةِ والسياسية والتّاريخية والأيديولوجية، فيصير لدينا ضَربانِ من الخطاب على النّحو الآتي:

أ -خطاب ظاهري، يَتَغيَّا قراءةَ الأَثَرِ الأدبيّ للوصول إلى مجموعةٍ من الأحكام المتعلّقة بقيمته الفنّية (موضوع القيمة يصبح هنا شديد الغموض والتباين عما نعرفه الآن في المصطلح النقدي المعاصر)**(4)**

ب -خطاب مضمر ، هو خطابٌ نسقيٌّ يجعلُ من الأدبِ مجرَّدَ وسيلةٍ لتمريرِ مجموعة من الأحكام السّياسية والإيديولوجية والأخلاقيَّة وغيرها ، ممَّا لا يقدّم أيَّة خدمةٍ لموضوع الأدب، بقدر ما يعمل على تهميشه وإبعاد نظر المتلقّي عنه **(5)**.

وتأسيسًا على هذا، ألا يكون النّقد بوصفه خطابًا نسقيًا، عمل على "تشويه"* صورة النّص الأدبي لدى المتلقّي وإلغائه من مخيَّلته؟ ألم يتحوّل "النّقد"، بوصفه كلامًا على كلامٍ، إلى خطابٍ ذي غرض توجيهي فقط، محكوم بمجموعة من السياقات المعدَّة مسبقًا، من خارج حقل الأدب، ممّا يعزّز الرأي في الدّور السّلبي الاستبعادي الذي لعبته هذه الخطابات المتوشّحة بـ"النقد" في حين مارست عملية ترسيخ فكرة خاطئة عن معنى "الأدبية "؟

<u>حدلية النقد الأدبي والمرجع:</u>

الظاهرة النقدية في الجزائر واحدة من عِقْدٍ متعدِّدٍ، يمثّل جزءًا من صورة الممارسة النّقدية العربيّة الحديثة، حيثُ يرتبط الخطابُ النّقدي بنوعٍ من الخطابِ المرجعيِّ الخاضعِ لسلطة المؤسّسة (السياسية /الحزبية /الجامعية ...) الذي يمكن تصنيفه إلى مجموعةٍ من المقولات الإيديولوجية شديدةِ الالتباس:

أولا: المقولات الكبرى: وهي التي أنتجتْها مجموعةٌ من السِّياقات السّياسية والثّقافية على مرّ التَّاريخ الجزائري ويمكنُ تحديدها فيما يلي:

-الخطاب الديني الأخلاقي: ومثّلته الحركةُ الإصلاحية وبالأخصّ جمعيةَ العلماءِ المسلمين، حيث ساهمتِ الجمعيةُ في إنتاج مجموعةٍ من الشّعراء والكتّاب، تركوا بصماتٍ واضحةً في الواقع الأدبي والنّقدي في مراحله الأولى. ومن هنا فإنّ الدّور المركزي الذي لعبه "النّقد" كان بالأساس توجيهيًا، **(6)** ومن أهدافه ربط الأدب بوظيفةٍ أخلاقيةٍ دينيةٍ واضحةٍ وهو ما عكسَتْه نصوصٌ كثيرةٌ، انبرى أصحابُها للحديث عن وظيفة الأدب ودوره في تنشئة الأجيال.

-الخطاب السياسي /الاشتراكي : وقد وقعت على الأدباء والكتّاب جميعا وظيفة صعبة وتَبعةٌ جليلةٌ وهي ضرورة ترجمة المعاني والأفكار السياسية التي تشكل لبّ الحكم الاشتراكي وتمثلها في الأعمال الأدبية المنتجة ، وأنيطت بالأدب هذه المهمّة لكونه أحد الأسس التي يعتمدها النظام السياسي لمخاطبة المثقف ،وفيها يتجلّى دور المؤسسة في تهميش الأدب بوصفه مغامرة في الحرية لأنّها من العناصر النّوعية للخطاب الأدبي**(7)** وكان الناقد من أبرز من مثّل وجه السلطة في "مراقة " الكاتب الجزائري وذلك بفعل النقد التطبيقي أو النظري الذي احتضنته المنابر الثقافية التابعة للدولة أو الحزب الحاكم ،ومهما يكن الحال فإن النقد هو الآخر حاول ان يختفي وراء مجموعة من المعايير التي تحقق جمالية النص وهي –كما أسلفنا –ذات بعد سياسي واضح ولم يكن في الواقع الأدب إلا وسيلة لتكريس القيم السياسية هذه وتجلى ذلك بوضوح في النص النقدي الممثل لهذه المرحلة ،أي أنّ الأدب تحوّل إلى شيء ثانوي ،او هامشي بينما كان الخطاب الإيديولوجي هو المحتل للمركز ومن هنا لم تتجه الذائقة الأدبية نحو المعايير الجمالية بقدر ما كانت تتجه إلى ما تحمله النصوص من "أفكار" لها علاقة بالبناء الفكري للإنسان في المجتمع الاشتراكي .

-خطاب التعدد الثقافي والتجريب النقدي: في نهاية الثمانينيات برزت مجموعة من الجهود النقدية وكان من أهدافها الابتعاد عن المنهج الانطباعي والتاريخي الذي سيطر على الفعل النقدي الجزائري فنشأت جماعة السيميائيين وكان لها بعد مؤثّر في الدراسات الأكاديمية الجامعية المتخصصة، نعتبر هذه الجماعة اللبنة الأولى في تحديث الآليات الإجرائية للخطاب النقدي الجزائري المعاصر والي بقيت لها امتدادات كبيرة إلى يومنا هذا كما سنعرض لها لاحقاً.

نستنتج من هذا البسط التمهيدي أنّ النّص النقدي ارتبط ارتباطا كبيرا بالمرجع الفكري والسياسي والإيديولوجي وشكّل مجرّد واجهة شكلية لخطاب إيديولوجي جاهز هو من إنتاج السلط السياسية والدينية والإيديولوجية عمل على إبعاد نظر المتلقّي عن معنى الأدب والأدبية.

نستطيع ملاحظة ذلك من المراحل التاريخية التي ارتبط بها النقد ، بالرغم من صعوبة تحديد المراحل النقدية هذه لتداخلها ولاستمراريتها في الزمان والتاريخ ولكننا نجاري أحد الباحثين**(8)** عندما قسّمها إلى خمس مراحل أساسية وهي :

المرحلة الأولى :1900-1939م: ومن أبرز أعلامها محمد راسم وعمر بن فدور وعبد الحميد بن باديس ومحمد السعيد الزاهري ومبارك الميلي ومحمد بن العابد الجلالي ومحمد الهادي السنوسي الزاهري وأبو اليقظان وقد حاولوا من خلال أعمالهم وجهودهم تقريب:" لمعرفة الدينية والأدبية والسياسية والتاريخية من القارئ في الجزائر، وجعلوه يسهم في إثرائها بالكتابة والمناقشة "**(9)**

ويعتقد أن نشر مقال رمضان حمود في مجلة "الشّهاب" الذي حمل عنوانًا ثورياً :(حقيقة الشعر وفوائده) قد ساهم بالتبشير بأفكار جديدة في النص النقدي الجزائري، فقد حمل هذا المقال قيم الثورة على القديم وقبول الرأي الآخر والاختلاف وساهمت عوامل كثيرة في إثراء الواقع النقدي في هذه المرحلة ومنها بشكل خاص: انتشار التعليم والصحافة واتصال الأدباء والكتاب بأدب المشرق وتأسّيهم به وظهر ذلك من خلال تأثّر النقد بالمناهج النقدية الرائجة في المشرق العربي وهي: المنهج التاريخي والمنهج التأثّري والمنهج الفني..**(10)**

وتركّز اهتمام النقد في هذه المرحلة على الجانب الشكلي :(الأخطاء اللغوية والتعبيرية) والوظيفة الاجتماعية والأخلاقية والدينية والسياسية التي يجب على الأديب ان يمثّلها في هذه المرحلة التاريخية الهامة. **(11)**

-المرحلة الثانية :1900-1956

ويعدّ الأديب أحمد رضا حوحو رمز ورائد هذه المرحلة، إذ بعد سنوات من الركود امتدت حتى عام 1947 تميّزت بتوقيف صحف جمعية العلماء المسلمين ومتابعة أعضائها، مما أدى إلى شلل حقيقي للحركة الأدبية والإعلامية وكذلك النقدية وتميزت تجربة أحمد رضا حوحو بالتعدد الإجناسي والثراء.

برزت آراؤه النقدية في مقالات نشرها في مجلات: البصائر والشعلة والمنار وكتابه الشهير الساخر مع (حمار الحكيم) ووظّف شخصيات أدبية في أعماله القصصية والمسرحية من أجل السخرية من يعض أفكارها على نحو مجموعتيه:(صاحبة الوحي وقصص أخرى)

و(نماذج بشرية)، ومن الأسماء التي اشتهرت في هذه الفترة إلى جانب أحمد رضا حوحو نجد: عبد الرحمان شيبان وعبد الوهاب بن منصور وعبد المجيد الشافعي ومما يلاحظ أنّ إنتاج هذه المرخلة ما زال بعيدا عن النشر مما يجعلنا لا نبني تصورا واضحا عن النقد.

المرحلة الثالثة :1956-1972م

يمكن اعتبار هذه المرحلة بداية حقيقية للنقد الجزائري المنهجي ، تمثّل في بروز النقد الأكاديمي الجامعي واحتضان مجلة "الآداب" الشهيرة لمجموعة من مقالات الدكتور أبي القاسم سعد الله حاول فيها التّأريخ للأدب الجزائري وتمّ التركيز على البعد التاريخي للأدب والقيم الاجتماعية والفكرية والسياسية التي يتمثّلها ويستشف من خلال مجموعة العناوين التي وضعها أبو القاسم سعد الله في كتابه (دراسات في الأدب الجزائري الحديث) مثل : شخصية البطل في الأدب الجزائري،رضا حوحو ونضال الكلمة ،القضايا العربية في الأدب الجزائري، أرض الملاحم ، الجمعيات والنوادي الثقافية في الجزائر...**(12)**

المرحلة الرابعة :1972-1982م

يقول شريبط أحمد شريبط عن هذه المرحلة:" تميّزت هذه المرحلة بتأثير الخطاب السياسي وهيمنته على جل الخطابات الإبداعية والأدبية والفنية "**(13)** ومن عوامل هذا التحوّل الظرف السياسي والاجتماعي الجديد وانفتاح الجزائر بعد الاستقلال على الثقافة الماركسية مما أدّى إلى سيطرة منهج الواقعية الاشتراكية جاعلة من كتابات لوسيان غولدمان وجورج لوكاتش وأنطونيو غرامشي أساساً للنظر النّقدي ومن النقاد الذين برزوا وتكرسوا بوصفهم نقادا فقط الدكتور محمد مصايف لكثرة ما كتب وحرصه الشديد على متابعة كتّاب السبعينيات.

والدكتور عبد الله الركيبي ومخلوف عامر وإزراج عمر** (وإن كان هذا الشاعر مختلفًا تمامًا عن جيله

إبداعيا ونقديا) ولكنّ هذه المرحلة شهدت تعددا في الرؤى وكثرة وفيرة في الإنتاج، طبعا هناك أسباب وخلفيات كثيرة لا يمكن التعرّض لها هنا.

المرحلة الخامسة :1983-2014:

في هذه المرحلة وبالذات عام 1983 صدر للدكتور عبد الملك مرتاض كتابه النص الأدبي: من أين؟ وإلى أين؟ وهو مجموعة محاضرات كان قد ألقاها على طلبته في قسم الماجستير ومما يستنتج منها أنّها دعوة جديدة إلى مرحلة نقدية غير انطباعية ولا تاريخية مؤدلجة بل هي نظرة بنيوية ذات طابع حداثي وبعد سلسة من الكتب في منهج سيميائي تفكيكي ،يجمع بين النظرة المنهجية المعاصرة وبين معطيات الدرس النقدي العربي القديم وصل عبد الملك مرتاض في كتبه الأخيرة إلى مرحلة نقد مراجعة النظرية النقدية الغربية كما تجلّى ذلك في كتابيه (نظرية الرواية /بحث في تقنيات السرد)**(14)** و (في نظرية النقد : متابعة لأهمّ المدارس النقدية المعاصرة ورصد لنظرياتها)**(15)** حيث يستند الباحث إلى منهج في القراءة ،لا يروم فقط تقديم المادة النقدية الغربية للقارئ العربي بترجمتها أو إعادة إنتاجها بل يمارس عليها النقد في مواضع كثيرةٍ منها، مما يدلّ على أنّ عبد الملك مرتاض يتّجه إلى ما يعرف بالمنهج الجامع ، الذي يستفيد من عدّة منابع ومدارس نقدية لمقاربة ظاهرة نقدية ما وهو نفسه يعترف بأن زمن المنهج الواحد قد انقضى **(16)**

إلى جانب عبد الملك مرتاض ظهرت أسماء كثيرةٌ ومنها بالأخصّ عبد القادر فيدوح (دلائلية النص الأدبي-دراسة سيميائية للشعر الجزائري) **(17)** وعبد الحميد بورايو ورشيد بن مالك والسعيد بوطاجين (الاشتغال العاملي)، حسين خمري (فضاء المتخيّل). كما تجدر الاشارة إلى أنّ النقد الجامعي شهد تطوّرا في الرؤية تعدّت عتبة النقد البنيوي والسيميائي إلى نظرية التلقّي والقراءة ولكنّ معظم الأعمال التي يقوم بها طلبة الدراسات العليا المتميّزون لا تنشر وبالتالي تبقى إشكالية النشر من العوامل الأساسية التي تعمل على تأخير تطوّر النّقد الجزائري والحقيقة أنّ النقد الجامعي هو موضوع مستقلّ يمكن البحث فيه بطريقة أخرى نظرا لكثافة الأعمال النقدية المنجزة ولكنّها مهملة لا يستفيد منها أحد.

إنّ النتيجة التي يخرج بها كلُّ متتبّع للنصّ النّقدي الجزائري هذا الارتباط المتين بين السياقات الخارجية متمثّلة في المرجعيات السياسية والثقافية والفكرية والإيديولوجية والجمالية عامة (الأنظمة النّسقية) وبين الممارسة النقدية وهو ما نجعلنا نبحث فعلاً عن هذه المطابقة في النصوص النقدية من أجل بلورتها أكثر.

الأنساق الثقافية في النص النقدي:

اخترنا من أجل إظهار هذه المطابقة مجموعة من الأحكام النقدية (غير العلمية) والتي تتكئ على مجموعة من القيم خارج لغوية، يمكن اعتبارها التأثيرات التي يمارسها السياق الخارجي على النّاقد ونظرا لأن المدوّنة لا يمكن أن نحيط بها كاملة فقد اخترنا مجموعة من النقاد نعتقد بقدرتهم التمثيلية للنقد الجزائري.

يقول الدكتور عبد الله الركيبي:" ...ومن يتتبع الحركة الثقافية والأدبية في الجزائر يدرك تماما أنّ الأدباء والشّعراء كانوا يسعون باستمرار إلى تمتين الروابط مع المشرق العربي على الرغم من الظروف التي كانت اعيشها الجزائر داخل الأسوار، حيث فرض عليها الاستعمار عزلة لم يشهدها أيّ شعب من الشعوب المستعمرة .

فكل ما يمتّ للشرق بصلة كان محرّما على الجزائر، والسفر والتعليم كانا لا يتمان إلا بالهجرة أو الهروب والصحف كانت تصل إلى أيدي الناس

كالأشياء المحرمة المهربة ، ومثلها الكتب التي حرّم تدريسها والانتفاع بها. وخاصة تلك الكتب التي كانت تدعو إلى يقظة الأمة العربية الإسلامية ولا يخفى على أحد أن جريدة "العروة الوثقى" والتي أنشأها جمال الدين الأفغاني بمساعدة الشيخ محمد عبده كان يمنع دخولها إلى الجزائر، بل إنّ الشيخ عبد الحميد بن باديس كان يدرس مقالاتها لتلاميذه بين الحرمين ،في مكان بعيد عن عيون الفرنسيين وجواسيسهم...."**(18)**

ويضيف قائلاً:" ومهما يكن، فإنّ منشأ هذه المعركة وأمثالها بين الأدباء الجزائريين إنّما كان تعلّق الجزائر بالوطن العربي وبالعروبة حتّى إنّ الإمام" بن باديس" ذكر مرة بأنّ الشرق كاد يلهينا عن واقعنا على حد تعبيره، وهو بذلك عبّر عن حقيقة يدكها من يتتبّع الحركة الأدبية والثقافية منذ النّهضة، حيث احتفلت الصحافة والنوادي الثقافية بأخبار المشرق العربي وبأحداثه الأدبية والسياسية والاجتماعية ..."**(19)**

انطلاقا مما وضعه المؤلف تقديما لدراسته عن الشعر الجزائري،نلاحظ أنّ موضوع "الأدبية" أصبح مؤسّسا على مجموعة من المعطيات يمكن إجمالها فيمل يأتي:

أ لا يمتلك الشعر الجزائري الحديث أيّة مرجعية أدبية خارج_دوره القومي (تمتين الروابط مع المشرق العربي)

ب-تكون الوظيفة السياسية (الالتزام بالقضايا الوطنية) المحور الأساسي للقيمة الأدبية والنقدية.

ومن هنا نجد الناقد يرهن القيم النقدية في مدى تعبير النصوص الشعرية الجزائرية عن هذه المعايير المحددة سلفا بما أنّه وضعها في مدخل الكتاب **(20)**

تتجلّى أكثر هذه الأبعاد الأيديولوجية في العملية النقدية عند الدكتور محمد مصايف الذي يقول محدّدا الأسباب التي حدت به إلى الاهتمام بالنقد:" بدأتُ اهتمّ بدراسة الأدب الجزائري تقريبا منذ أواخر الستينيات وعلى وجه التحديد منذ سنه 1968م والسبب الوحيد الذي دفعني إلى هذا الاهتمام هو أننا كنّا في هذه الفترة، ومن خلال جريدة الشعب، وفي معركة من أجل التّمكين للغة العربية في حركتنا الأدبية، ومحاولة التدليل على أن للغة العربية أدباء وأعمالا لا تقلّ أهمية عما كان يكتب في اللغة الفرنسية "**(21)**

يشكّل التعريب، بما يحمله من ثقل إيديولوجي وسياسي كبير الهاجس المركزي الحقيقي

وراء العملية النقدية تنظيرا وممارسة وهذا ما تجلّى بشكل لا تخطئه العين في كتابات محمد مصايف ،فقد بدت الإنتاجية الأدبية والنقدية غير مستقلتين عن الفعل السياسي بل لا وظيفة لهما خارج هذا السياق المحيط بها ، من كل جانب ، ومن الملاحظ أنّ الكاتب كان لا يكتفي بتحليل الأثر الأدبي وتوجيه القارئ إليه بل كان يطلق مجموعة من الإرشادات والنصائح تظهر فيها الأبعاد السياسية والثقافية والانطباعية قوية ، فالنقد من وظائفه ان يقف أمام كل "انحراف" يحاوله بعض الأدباء عن وعي أو غير وعي **(22)** فواضح هنا النّزعة الحزبية والمؤسساتية التي تحدّ من مغامرة الكتابة والكاتب وتقصر الوظيفة الأساسية للأديب في أفكاره الحزبية النضالية فقط . لقد اندرج هذا التيار الفكري ضمن ما أطلق عليه في النظرية الماركسية بـ"الالتزام" الذي يبقى من القواسم المتشابهة في فترة الهيمنة الواقعية الاشتراكية في العالم الشرقي والعربي على وجه الخصوص تتعزّز هذه الفكرة أكثر عند محمد مصايف في البنية المنهجية التي اعتمدها، فالمنهج يمكن فهمه على نوعين:

الأول: المنهج كطريقة إجرائية وهو المنهج التحليلي التركيبي دون أن يشرح ماذا يقصد بهذين

المصطلحين وهو مفهوم واضح جلّيّ على أية حال في ممارساته النقدية التي اطلعنا عليها .

الثاني: المنهج كرؤية إيديولوجية جمالية وفي هذا النوع من الدراسة الأدبية نرى محمد مصايف ينزلق وراء الأحكام المؤدلجة لتصبح أعماله جزءاً من التّوظيف السلطوي للأدب في إطار عام سمّي بـ:" الأخلاق الثورية "لتي يتصف بها المثقف الثوري وهو :" الذي يناضل باستمرار ضد الروتين والبيروقراطيين والتبذير والسرقة واللامسؤولية وضد الفكر الانعزالي الضيق وضد الأنانية البورجوازية وضد نشر التعميم والظلام الفكري ،إن دور المثقف الثوري ليس في الحديث ن الاشتراكية بصفة تجريدية وكفى بل هو المساهمة بأقصى امكانياته في بناء الاشتراكية ذاتها"**(23)**

يتعيّن من هذا أنّ النّاقد مثله مثل الكاتب رهينٌ ، غير حر في أفكاره وغير قادر على الذهاب بعيدا في مغامرة الكتابة، والمهم أنّنا نستطيع تلخيص اتّجاهات الممارسة النقدية المنهجية على النحو الآتي:

الأولى : هي التي مثلها جيل الرواد أمثال د. عبد الله الركيبي ،د.محمد مصايف ،د.محمد ناصر ،د.أبو القاسم سعد الله ، د. عمر بن قينة .

وفي هذه الممارسة النقدية كان التركيز على جوانب بعيدة عن النصية أو هي قريبة منها ولكنّها لا تصبّ فيها بشكلٍ واضح وأهم تمفصلاتها تبدو في الآتي : الجانب الخارجي ونقصد به المؤثرات الثقافية والسياسية والاجتماعية التي أسهمت في تكوين الظاهرة الأدبية .وبالتالي لم يكن النّقد مهتمّا بالنصوص الإبداعية لذاتها بقدر ما كان هاجسه المركزي ،استنطاق النص الإيديولوجي المؤسساتي الذي يجب أن تعكسه للقارئ .حينئذ تراجع النص الأدبي كقيمة جمالية امام سلطة المرجع النسقي.

الجانب الداخلي وتمثله الأدوات النقدية التي يستعرضها الناقد وهي وسائل تقليدية مثل : اللفظ والوزن والفكرة وقد بدا هذا واضحا مثلا في كتاب محمد ناصر (رمضان حمود ، حياته وآثاره) وكذلك محمد مصايف في كتبه المختلفة وخاصة في كتابه (النثر الجزائري الحديث) .أما الدكتور أبو القاسم سعد الله فلا بدّ أنّ ميله للتأريخ واضح وتكفي الإشارة إلى كتابه (دراسات في الأدب الجزائري الحديث) والذي اعتمد فيه طريقتين :

-الأولى هي مجرد العرض أي تلخيص النصوص للقراء للتنويه ببعض معانيها

-الثانية العرض التاريخي لفكرة أو نص مترجم تأسيسا على قيمه الفكرية "الوطنية"

ويشارك هؤلاء د.عمر بن قينة الذي يجمع بين التحليل والعروض والتتبع التأريخي الاستعراضي للظاهرة ويمثل كتابه في الأدب الجزائري الحديث :تأريخا وأنواعا وقضايا وأعلاما هذا الاتجاه .

ونلاحظ أنّ آليات القراءة النقدية من الناحية الشكلية كرّست ما يسمّيه عبد الله الغذّامي مفهوم النقد البلاغي التّبعي وأبقت بالتالي الأدب محاصرا بمجموعة من المرجعيات السلفية القديمة بما يجعله دائما خاضعا لأنماط مؤسساتية متعددة .

والمهم في كلّ هذا ليس ما كان عليه النقد بقدر ما كان له من دور أساسي في تتبع بعض النصوص نقديا ولو كان ذلك بشكل انطباعي بسيط .

ثمة ملاحظات عديدة على هذا الاتجاه النقدي ، وأدرجه شخصيا ضمن النقد الموضوعاتي الإيديولوجي الذي لا تكون الجمالية عنده إلا معيارا ثانويا والأهم من ذلك :

-اعتباطية في توظيف المصطلحات ذات المحمولات الفلسفية والأدبية كاستعمال الحداثة مرادفا للحديث والنهضة ، يقول أحد هؤلاء النقاد المذكورين سابقا :" إن الحداثة في الأدب الجزائري

ترجع إلى النصف الأول من القرن التاسع عشر حيث كان ارتباط الحركة الأدبية في المغرب العربي بالمشرق قائما "**(24)**

-إطلاق أحكام القيمة المعيارية كما تجلى ذلك في دفاع المرحوم د. محمد مصايف عن محمد العيد آل خليفة معتمدا على معيارين هما:

-معيار الطرب والاهتزاز في قوله " وتمعّن البيت الأخير بصفة خاصة ألا يهزك عند قراءته "**(25)** .

معيار الوحدة العضوية: هذا فضلاً عن معيار تقليدي وهو الوحدة العضوية (أرسطو طاليس)

نجد توظيفا ظاهرا لهذا المصطلح التقليدي في نصوص النقد الجزائري بأشكال وملفوظات متباينة.

3-دلت المعارضات النقدية المشار إليها آنفا على فهم مبتسر لمعنى "الأدبية " وقد أسهمت في إقصاء نصوص من الدراسة الممكنة، طالما أنّ هذه النصوص خرجت عن معيار الأدبية الذي يجري فيه هوى هؤلاء.

4-غياب التخصص: وهذا أمر واضح في كل الكتب النقدية الجزائرية، ثمة ما قد نسميه النقد الجامع أو"الشمولية" الأي الذي يجمع النصوص الأدبية كلّها ولا يضع أمامه شكلا معينا منها وهكذا تجد كتابا واحدا يحتوي مقالات نقدية في أشكال أدبية متعددة: القصة ، الشعر ، الرواية دون أن يشكّل ذلك حرجًا لصاحبه .

فلابد أن النقد بصورته المرتبكة هذه، كان متأثّرا بعصر الإحياء وما كان عليه النقد في المشرق أو ما انتهى إليه جيل الرواد أمثال طه حسين والعقاد ومصطفى صادق الرافعي وغيرهم الذين شكّلوا في النهاية خلفية مبطنة للنقد الجزائري لدى جيله الأول.

من ناحية أخرى، بدا لي أن النقد الجزائري كان يمكن أن يأخذ مسارا آخر لو ساد ما يعرف بـ"نقد النقد " ودخلت المثاقفة، في شكلها الحقيقي لا المزيّف، ركنا أساسيا في المشهد النقدي الجزائري ، ولكن الحاصل أن هالة من الهيبة والتحفظ كانت تميز تجارب هؤلاء النقاد ولذلك لم يجرؤ أحد على مخالفتهم أو الثورة عليهم علنا ،ولم يثر أيّ نقاش حقيقي بين الكتّاب ولعلّ سبب ذلك هو اشتراكهم في نوعية الثقافة الأدبية والأرضية النقدية والسياق التاريخي الذي كان مشبعا بالشعارات الإيديولوجية الوطنياتية .

إزاء كلّ هذا، كان لابدّ أن تظهر بعض الطفرات القليلة ،خاصة أمام انعدام وسائل النشر وهو ما أدى إلى ظهور بعض الأصوات التي أبت إلاّ أن تخرج عن الطاعة ، والغريب أنّ بعض هذه الأصوات أهدت كتبها للجيل الأول المؤسس ، فهل هي الأبوة التي تسكن الأبناء تصر على البقاء أم أن إنجاز هؤلاء الآباء لا يمكن أن يمحى بمجرد إصدار كتاب أو كتابين ؟

وأريد هنا الوقوف على مثال يتمثل في كتاب " أسئلة الكتابة النقدية " لإبراهيم رماني **(26)**، ففيه علامات ثورة على المناهج القديمة وخاصة : المنهج التحليلي التركيبي والتاريخي والموضوعاتي والتي اعتمدها كل من د.عبد الله الركيبي ،ومحمد مصايف وقد أهدى المؤلف كتابه هذا إلى د. عبد الله الركيبي وهو شكلٌ من أشكال الاعتراف والتواصل بالرغم من أنّ الكتاب هو مرافعة ضد القناعة التي انتهى إليها النقد الجزائري آنذاك .

وقد لاحظت ، وهو رأي شخصي ليس إلا ، أن المؤلف يدعو إلى المنهج البنيوي على المستوى الخطابي ولكنه لا يستطيع تطبيقه على مستوى القراءة النقدية ،إذ تمتلئ مقالات الكتاب بالأحكام المسبقة والخلط بين المصطلحات وعدم تحكم واضح في اللغة النقدية واخترت هذه الفقرة للتمثيل .

يقول إبراهيم رماني في مقال بعنوان زمن النقد :"

زمن الحوار والاستقراء ذاكرة الموروث و التأسيس زمن المراجعة الكلية وإلغاء الأطر المرجعية المسبقة نفي الأحكام الجاهزة ومواجهة النص عاريا من كل ملابساته وشوائبه التي تخفي حقيقته التي ترسبت في ذاكرة القارئ بفعل الإلحاح عليها .زمن جديد لا يتكئ على آراء غيره أو يستند إلى أحكام الآخرين .ولا يشفع لهذا النص أو ذاك بشهادة ناقد كبير أو أستاذ معروف لان الشهادة الصحيحة في التاريخ الأدبي المكتفية بذاتها هي النص كبنية لها وجود متكامل داخليا وخارجيا " **(27)**

نلاحظ في هذا المقتبس البسيط، كيف تغطي البلاغة الخطابية على الدلالة، كيف يمكن فهم المنهج الذي يدعو إليه المؤلف من كل هذه المتقابلات، نقول ذلك لأنّ عدم وضوح المنهج قد يؤدي إلى إطلاق وإصدار أحكام معيارية تحمل وهم النقد البنيوي الجديد وفي ذلك تجاوز لعلمانية النقد المرجوة وتخطٍ للمنهج الجديد نفسه. ولابد أنّ الجيل الشاب الذي أتى بعد جيل الشيوخ كان هدفه نبيلا، لكنّه كان واقعًا تحت نزعة الموضة والمخالفة القسرية. ففي نهاية السبعينيات، بدأت موجة الدراسات البنيوية تغزو حقل القراءة النقدية العربية، وذلك من خلال مجلة "فصول" النقدية التي أسهمتْ مساهمة معروفة في الإشهار لهذا المذهب النقدي، فتحولت أعمال رولان بارت وغيره إلى علامات راشدة للنقد العربي بما في ذلك النقد الجزائري -على ضآلته- ولكنّ أهمية هذه التجربة أنّها فتحت النص نفسه على القراءة لا ما يحيط به من معطيات غير نصية وجعلت تتقصى بعض طرق الممارسة النقدية الهادئة ذات المنهج والبعيدة عن الخطاب البلاغي الإيديولوجي.

أما المرحلة الأخيرة، فهي مرحلة النقد العلاماتي أو السيميائي، ولا شك أنّ أعمال رشيد بن مالك وعبد الحميد بورايو وسعيد بوطاجين وعبد القادر فيدوح تعتبر رائدة في السيميائية الجزائرية إن صح التعبير.

وهي بحقّ، منافذ حقيقية نحو تجريب نقدي آخر، قد يكون كذلك رد فعل على تضعضع النقد الجزائري وانسحابه من ساحة النقد الفعال ذي الأدوات الجديدة، ولكن ثمة أسئلة وملاحظات تدعو الباحث إلى إمعان النّظر فيها، ومنها الأسئلة الآتية: لماذا تأتي المناهج هكذا متأخرة عن حينها ولماذا يكون التركيز على عينات قديمة في الدراسة التطبيقية لا تترجم حقيقة العلاقة التواصلية المفترضة بين النقد وحقل الإبداع.

لكنّ كلّ هذا لا ينبغي أن يحجب عنا أهمية النقد المنهجي، إنه يتطلع بحسب النماذج التي اطلعنا عليها إلى:

-تطبيق نظريات محددة على النص الإبداعي – نظرية غريماس

-التمعّن في المنهج ومحاولة مراجعته (الاشتغال العاملي لسعيد بوطاجين)

-الاجتهاد على مستوى التطبيق من خلال الوضوح المنهجي والاصطلاحي أعمال رشيد بن مالك وعبد الحميد بورايو

-بروز التخصص والتركيز على جنس أدبي بعينه (ويغلب على هذه الدراسات اعتمادها النصوص السردية)

يمكن القول أنّ النقد بوجهيه التنظيري والتطبيقي كان وجها ظاهرا فقط لخطاب مضمرٍ، وهو الخطاب الذي كانت تعطي له المؤسسة قيمة وترضى على ممارسيه ليس لدواعٍ علمية أكاديمية بل كان من أجل توطيد القيم الثورية ذات المنزع الاشتراكي وهو ما جعل من الأدب، والنقد معني بهذا ، مجرّد هامش ، يفتقد إلى قوة المنهج والأداة وهي مثلبة كبيرة سادت النقد الجزائري إلى الآن.

كما أنّ المعايير المؤسساتية التي أرساها هذا النّقد كوّنت جيلا من الكتّاب والصحفيين يقصون الإنتاج الأدبي الذي يخرج عن هذه النظرة المغلقة، حبيسة المثال الاشتراكي الأوحد. لكنّ هذه التجربة النقدية لم تكن سلبية تماما بل كانت في رأينا لتوجّه النقد الجزائري نحو التجريب لشعور الناقد الجزائري بضعف ما ينتجه إزاء موجة عارمة من النظريات الجديدة بدأت تبرز بشكل واضح في نهاية الثمانينيات. وحتى التجربة النقدية الجديدة جاءت بتأثير الخارج (الظروف الثقافية والفكرية والسياسية المحيطة) وهو ما يعكس في العموم ترهين النقد للأوضاع المستجدّة.

الهوامـش :

1-فنسنت بي ليتش: النقد الأدبي الأمريكي من الثلاثينيات إلى الثمانينيات ،تـ محمد يحي مراجعة وتقديم:ماهر شفيق فريد، المجلس الأعلى للثقافة ،مصر، ط1، 2000، ص 15

2-Joëlle Gardes-Tamine,Marie claude Hubert :Dictionnaire De Ccritique littéraire , Critica (Collection),Cérès éditions ,Tunis ,1998,p66

3-عبد الله محمد الغذامي: النقد الثقافي، قراءة في الأنساق الثقافية العربية ،المركز الثقافي العربي ،بيروت ،لبنان، ط2000،1، ص8

*المقصود هنا أنّ "النقد" أعطى صورة عن حقية أخرى وهي التعبير عن الإيديولوجيات والأفكار السياسية المهيمنة بما يجعله نقد المؤسسة التي أنتجته ولا تحمل الكلمة أيّة قيمة أخلاقية سلبية.

4- أبو القاسم سعد الله : دراسات في الأدب الجزائري الحديث ، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ط2، 1985، ص113

5-رولان بارت: الأدب بلاغة ،ضمن اللغة والخطاب الأدبي، تر:سعيد الغانمي، المركز الثقافي العربي، بيروت لبنان، ط1، 1993، 53

6-انظر شريبط أحمد شريبط : مباحث في الأدب الجزائري المعاصر ، اتّحاد الكتّاب الجزائريين، ط1، الجزائر 2001

7-المرجع نفسه، ص5

8-المرجع نفسه، ص6

9-المرجع نفسه، ص8

10-- أبو القاسم سعد الله : دراسات في الأدب الجزائري الحديث ، ص113

11- شريبط أحمد شريبط : مباحث في الأدب الجزائري المعاصر، ص15

** يعتبر كتاب أزراج عمر (الحضور ،مقالات في الأدب والحياة) الصادر عام1983 عن المؤسسة الوطنية للكتاب من أهمّ الكتب النقدية التي عكست هواجس نقدية جديدة في النقد الجزائري وقد تضمّن الكتاب متابعات للأعمال الأدبية التي زامنها الشاعر وحوارات وتميّزت لغة الكاتب بالاحتلاف في الاهتمام ورفض كلّ أنواع العمالة النقدية كما سمّاها انظر ص 221 من الكتاب وخاصة مقالته (إنّها عمالة).

12- انظر عبد القادر فيدوح: دلائلية النص الأدبي(دراسة سيميائية للشعر الجزائري)، ديوان المطبوعات الجامعية ،ط1، الجزائر ،1993،

13-عبد الله الركيبي:قضايا عربية في الشعر الجزائري المعاصر، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ط1، 1983، ص15

14-عبد الملك مرتاض: نظرية الرواية ،بحث في تقنيات السرد، عالم المعرفة ،الكويت، ط1، 1998

15-عبد الملك مرتاض:في نظرية النّقد، متابعة لأهمّ المدارس النقدية المعاصرة ورصد لنظرياتها، دار هومة ،الجزائر، ط1، 2010

16-المرجع السابق، ص16

17- انظر عبد القادر فيدوح: دلائلية النص الأدبي(دراسة سيميائية للشعر الجزائري)، ديوان المطبوعات الجامعية ،ط1، الجزائر ،1993،

18- عبد الله الركيبي:قضايا عربية في الشعر الجزائري المعاصر ،ص17

19-المرجع نفسه،

20-المرجع نفسه، ص3 من المقدّمة

21-محمد مصايف :النثر الجزائري الحديث ، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ط1، 1983، ص26

22-المرجع نفسه، ص28

23-الطاهر بن عيشة: الأخلاق الثورية ،م/الرؤيا-اتحاد الكتاب الجزائريين، ع/3، السنة/2، 1983، ص32

24-انظر عمر بن قينه :في الأدب الجزائري الحديث، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ط1،

25-محمد مصايف: فصول في النقد الأدبي الجزائري الحديث، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ط2، 1981، ص19

26- إبراهيم رماني :أسئلة الكتابة النقدية، المؤسسة الجزائرية للطباعة ،منشورات المجاهد الأسبوعي .ط1، 1992

26- إبراهيم رماني :أسئلة الكتابة النقدية، ص4 وما بعدها.